أدب الأديرة

الدكتور نوري حمودي القيسي

فرزة من : مجلة المجمع العلمي العراقي
الجزء الثاني – المجلد السادس والثلاثون

شوال ١٤٠٥ هـ
حزيران ١٩٨٥ م

م. سرمد حاتم شكر

أدب الأديرة

الدكتور نوري حمودي القيسي

كليـــة الاداب ـ جامعة بغـــداد

للديارات ادب خاص تناولته الاقلام وعرفه المؤلفون وافاضوا في الحديث عنه حين يقفون عليه لما تثيره في النفوس مجالس انسه وطربه وتبعثه مواطن النزهة واللهو فيه وما تتركه مواقعه وقد انفردت بمكان ابتعد عن اعين الرقباء ، واتخذ من سفح رابية موقعا ، واستقر وسط غابة ظليلة على مقربة من جدول رقراق او ساقية حانية فكان ملتقى تذوب في اروقته عواطف العشاق وتنساب في ظل بواسقه همسات الشعراء وهي تقتسم الشوق والوجد وتتعاطى المودة والحديث ، حتى اصبحت بعض الاديرة مثار عاطفة الشعراء لانها فتحت ابوابها لهم ينالون منها ما حرموا منه ، ويغدقون من اطايبها ما يعينهم على تجاوز هموم الدنيا . حتى اقترنت كثير منها بذكريات عزيزة وامتزج الحديث عنها باخبار لا تنفصل عن اخبارهم وتتصل بمجالس عز فيهـــا الجلاس واشرقت الوجوه وتبودلت الاحاديث حتى اذا عادت يد الايام وجرت على هذه الاديرة عوائد الزمن كانت مبعث استثاره وموطن اسى حتى اقترن الحديث عن هذا البعض بحديث الشعراء حين يثير الطلل في نفوسهم ايام العز ولحظات اللقاء واحاديث اجتماع الشمل فاقتربت العواطف وتداخلت الاحاديث واستهلت المدامع بكل ما يعطي الموقف حرارة التفجع ومرارة التوجع واصبح لنا ادب خاص يمكن ان يصنف في باب نسميه باب ادب الديارات لانه اكتسب خصـــوصية من حيث

الموضوعات والمعاني والاوزان وطريقة التناول ولعل مجموعـة الكتب التي صنفت في هذا الباب تحدد الاتجاه الذي سلك على الرغم من ضياع عدد كبير منها وبقيت الاشارات التي احتفظت بها تلك المصادر وجها من وجوه الاهتمام وصدى لتلك المقطعات والقصائد التي عبر فيها الشعراء عن لحظات لهو عزيزة وليالي سمر حافلة ببهجة اللقاء وسعادة الحديث وانطلاق النفس لما يثير فيها من نوازع الابداع[١] .

فالنصارى يقصدون الاديرة للتقرب منها والتبرك بقدسيتها ، ويحضرها اهل التطرب واللهو للتنزه واصبح كل ذي ظرف يطرقها وكل ذي شجن يتسلى بها . وقد اهتمت بذكرهـا كتب التاريخ لانهـا بقيت مراكز احداث هامـة واستحوذت على مساحات من تاريخ الخلفاء لانها كانت على معـابر الطريق ومحطات نزول يجدون فيها الراحة والتسلية والطرب ، وازدهرت في ظلها اخبار واتسعت في رحابها دائرة الشعر العربي واسـتجدت اغراض وهي تستقطب الشعراء فاغنوا عطاءها بما قالوه من شعر هو اقرب للغناء وزنا فاحصى ياقوت الحموي في بلدانه حوالي مائتي دير وقف عند بعضها واستشهد بابيات شعرية وهو يستذكرها فحفظ لنا اخبارها واحداثها وما احيطت به من كرامات وقيل بشأنها من اقوال . وكان كتاب الشابشتي (ابي الحسن علي بن محمد المتوفي في حدود ٣٨٨ للهجرة) موسوعة بلدانية وتاريخية ومصدرا لتراجم الكثيرين من الادباء والشعراء الذين ضاعت اخبارهم ، وفقدت دواوينهم . لما فيه من اخبار طريفة وضمه من الوان شعرية الى جانب ما ذكره من اخبار خلفـاء بني العباس وامرائهم ووزرائهم ومن عاصرهم من ادباء وشعراء وندماء مغنين ، وقد

(١) تنظر قائمة الكتب التي وقفت على الديارات في مقدمـة كتاب الديارات للشابشتي للاستاذ الفاضل كوركيس عواد / ٢٢ ـ ٣١ .

جمع فيه ثلاثة وخمسين ديرا ذهب اكثرها [٢] واصبح هذا الكتاب مصدرا لبعض المؤلفين القدامى فيما كتبوه عن الديارات ـ القديمة فنقل عنه البكري في معجم ما استعجم في ثمانية عشر موضعا ، بعد ان ـ افرد بابا في كتابه سماه « ذكر الديارات المشهورة التي وردت فيها الاخبار وقيلت فيها الاشعار » ووجدته يذكر اثنين وعشرين ديرا مما لم يذكره الشابشتي على الرغم من صغر المساحة التي تحرك عليها • ووقف الطبري عند ذكر اربعة وثلاثين ديرا ، يذكرها حين يجد في ذكرها مسألة او تقترن بحادثة او يمر بها احد الذين يتحدث عنهم، ويشير المسعودي الى سبعة اديرة، ومن الطبيعي ان تختلف طبيعة الحديث الذي يتناول به المؤرخون الاديرة عن الحديث الذي تناوله الشابشتي او اصحاب البلدانيات لان منهج هؤلاء يختلف عن اولئك وطريقهم في المتابعة واستقصاء الاخبار تحملهم على الالمام ببعض ما هم بحاجة اليه وهم يجدون مكانا او يمرون بدير او يستذكرون ابياتا من الشعر او يروون خبرا عن خليفة او امير ولكن اخبارها تلتقي في تحديد الموضع وما يوصف به من كثرة البساتين والكروم وما تحفل به من كثرة الرهبان والقلالي وارتياد الفتيان واصحاب الخلاعة والتنزه وما يضرب به المثل منها في رقة الهواء وحسن المستشرف ومع تخصص كتاب الشابشتي بذكرها والافاضة باقوال الشعراء الذين اختصوا بها[٣] فانني وجدت صاحب معجم البلدان يفيض في ذكر اخبارها ويذكر قصصا غريبة وحكايات عجيبة عنها يرصع بها اخباره ويحلي بطرائفها اسفاره •

واصبح للديارات في تلك العصور شأن لانها حملت الناس على ارتيادها، وبعثت فيهم الرغبة على قصدها باعتبارها ملتقيات اعياد ومحافل مواسم هيأت

---

(٢) مقدمة كتاب الديارات للاستاذ المحقق كوركيس عواد •
(٣) تنظر مقدمة الكتاب / ٢١ •

للناس فرصة الخروج اليها مادامت مواقعها في احسن المواقع ، وقد افترشت عمارتها نـُزَهاً كثيرة البساتين والاشجار ، وغالبا ما تحاذيها اجمة قصب آهل برهبانه وقسانه والمتبتلين فيه فلا يبقى احد ممن يحب اللهو والخلاعة الا توجه اليها ولا من اهل التطرب الا قصدها ولا تكاد تخلو من قاصد وطارق بعد ان يصبح الشراب مبذولا في بعضها وتقصد بعض الاديرة للنزول بها وقضاء بعض الاوقات في ربوعها فينحدر اليها الناس من اماكن بعيدة او يصعدون اليها من مواطن قريبة فتصبح لمن جعلها طريقا مقاما يطيب بها المكوث ومن قصدها اقام فيها اياما لذ عيشها وحسن مكانها فلا تكاد تخلو من منحدر ومصعد ومن دخلها لا يتجاوزها الى غيرها لتوفر اسباب الراحة فلكل من يطرقها من الناس ضيافة قائمة .

ولبعض الاديرة مواسم من السنة يقصدها الناس ليتبركوا بها ويتقربوا الى نعمها ويستحموا بمياهها وتذكر اخبار هذه الاديرة ان مياهها تبريء من الجرب والحكمة وتنفع المقعدين والزمني وتشفي من الصرع ..

وحفلت بعض الاديرة بكثرة الرهبان واتخاذ القلالي والهياكل وبقيت تحتفظ ببيوت ينزل فيها المجتازون وفاء بكرم الضيافة وتوثيقا لعرى المودة واحياء للسنن الاخلاقية التي تطعم المسافر وتقري الجائع وتكرم الضيف .

ويبدو ان انفرادها وابتعادها عن مداخل المدن واتخاذها الاماكن النائية جعلها هدفا للطامعين وعرضها لغارات الغزاة واللصوص فجعلوا بناءها حصينا واسوارها عالية واحكموا صنع ابوابها واحاطوها بحائط يصل احيانا الى مائة ذراع كما يذكر ياقوت (٤) .

واقترن الحديث عن بعض الاديرة بما تضمه من عجائب وتنفرد به من فنون

(٤) ياقوت . معجم البلدان ٢/٦٤٥ .

وصور فدير باعنتيل على طريق دمشق فيه عجائب من صور الانبياء محفورة ومنقوشة ، ففيه صورة مريم في حائط منتصبة كلما ملت الى ناحية كانت عينها اليك ، وقد ذكرتني هذه الصورة بصورة المانليزة في متحف اللوفر التي تعد من ابداع الرسام يونارد دافنشي وان الفنانين القدامى قد اهتدوا الى هذا الضرب الفني منذ اقدم العصور . ورويت عن بعض الاديرة اخبار غريبة فدير باطيا له باب حجر يذكر ان هذا الباب يفتحه الواحد والاثنان فان تجاوزا السبعة لم يقدروا على فتحه البتة ، وفيه بئر تنفع من البهق [٥] ولتراب دير سعيد خاصية في دفع أذى العقارب واذا رُشّ بترابه بيت قُتلت عقاربه ولدير الكلب بنواحي الموصل قلالي ورهبان كثير فمن عضه الكَلْب الكَلِب وبودر بالحمل اليه وعالجه رهبانه برىء وان تجاوز الاربعين يوما فلا حيلة لهم فيه[٧].

وللفتيان باعتبارهم من رواد الاديرة ــ حديث خاص في هذا الضرب الادبي لان الديار تعمر بانسهم وتزهو بمجالسهم وتطيب بما تحفل به لياليهم لما يغدقونه عليها من رقة وقد وصفوا بالطف الاوصاف ونعتوا باحسن النعوت. واصبح ذكرهم بها قرينا وباخبارها ولهوها رهينا ووجد الشعراء الخلاعة والتهتك في هذا الحديث متنفسا فاطلقوا العنان لقرائحهم حتى تجاوزوا كل حد وابتعدوا عن كل عرف . فهذا مصعب الكاتب يقول في دير الزعفران [٨]..

عمرتْ بقاع عُمر الزعفران
بفتيان غطارفة هجان

(٥) تنظر اخباره في بلدان ياقوت ٦٤٦/٢ وتنظر اخبار دير برصوما ٦٣٦/٢ ــ ٦٣٧ .
(٦) ياقوت . معجم البلدان / ٦٦٩ .
(٧) ياقوت . معجم البلدان /٦٩٠ وتنظر اخبار دير متى/٦٩٤ .
(٨) الشابشتي . الديارات /١٢٢ .

بكل فتى يحن الى التصابي
ويهوى شرب عاتقة الدنان
بكلّ فتى يميل الى الملاهي
واصوات المثالث والمثاني
ظللنا نُعمل الكاسات فيه
على روض كنقش الخسرواني
واغصان تميلُ بها ثمار
قريبات من الجاني دواني
تثنيها الرياح كما تثنى
بحسن قوامه مأوى جناني
واطيار اذا غنتك اغنت
عن ابن المارقي وعن بنان
وغزلان مراتعها فؤادي
شجاني منهم ماقد شجاني

وفي دير عمر احويشا الذي عرف بسعته وعظيم بنائه وبكثرة رهبانه وقلاله وبحسن موقعه وكثرة بساتينه يلتقي اصحاب الطرب ويقصده الشعراء من كل حدب وصوب ، وكان الشاعر اللبادي يقضي لياليه وقد حفت به جوقة الفتيان يتعاطون اسباب اللهو ويتقاسمون نصيبهم من متع الدنيا . ويسمعهم من قصائده ما يديم عليهم هذه الليالي وينشدهم من اشعاره ما تخلد هذه المجالس (٩) .

(٩) الشابشتي . الديارات /١٢٧ .

وفتيـان كهمـك مـن أنـاس
خفـافٍ في الغدو وفي الـرواح
نهضت بهم وسـتر الليل ملقى
وضوء الصبح مقصوص الجناح
نـؤم بديـر احويشـا غـزالا
غريب الحسـن كالقمر الليـاحي
وكابدنـا السرى شوقـا اليـه
فوافينـا الصباح مع الصبـاح
نزلنـا منـزلا حسنـا أنيقـا
بما نهـواه مغمـور النواحـي
قسمنـا الوقت فيـه لاغتبـاق
على الوجـه المليح ولاصطبـاح
وظَلنـا بـين ريحـان وراح
وأوتـار تساعدنـا فصـاح
وسـاعفنا الزمـان بمـا أردنـا
فأبنـا بالفـلاح وبالنجـاح

ويمازج حديث الرفقة حديث الحنين والتشوق فقد حكى المازني فقال : دخلت دير بصرى فرأيت في رهبانه فصاحة وهم عرب متنصرة من بني الصادر وهم أفصح من رأيت فقلت مالي لا أرى فيكم شاعرا مع فصاحتكم فقالوا : والله ما فيه أحد ينطق الشعر الا أمة" لنا كبيرة السن فقلت جيئوني بها فجاءت فاستنشدتـها فأنشدتني لنفسها (١٠) :

(١٠) ياقوت . معجم البلدان ٢/٦٤٧ .

أيـا رُفقـةً من دير بصرى تحملـت
تؤمُّ الحمى أُلقيت من رفقـة رُشدا
اذا مـا بلغتـم سـالمين فبلغـوا
تحيـة من قد ظـن ان لايرى نجـدا
وقولوا تركنـا الصـادري مكبّـلا
بكل هوى من حبكم مضمراً وجـدا
فياليت شعري هل أجد جـانب الحمى
وقد أنبتت اجراعُـهُ بَقلا جَعْـدا
وهل اردَنّ الدهـر يومـاً وقيعـة
كأن الصَّبا يسـدي على متنـه بُرْدا

ولدير الشياطين في حـديث السري الرفاء مواقف ولاصـحابه مطارح وقد ازدانت بهم المجالس وعمرت المباهج وفيه يقول (١١) :

عصى الرشـاد وقد ناداه مُـذ حـين
وراكـض الغـي في تلـك الميـادين
مـاحن شيطـانه الاتـي الى بلـد
الا ليقـرب مـن ديـر الشـياطـين
وفتيـةٍ زهـر الاداب بينهـم
أبـهى وأنضر مـن زهـر البسـاتين
مشـوا الى الراح مشي الرخ وانصرفوا
والراح تمشي بهـم مش الفرازيـن
تفرغـوا بـين أعطـان الهيـاكل في
تلـك الجنـان وأقمـار الرواويـن

(١١) ياقوت . معجم البلدان ٦٧٣/٢ .

حتى اذا انطـق النـاقوس بينهـُـمُ
مزنّـر الخـصر رومـيّ القرابـين
يـرى المدامـة دنيـا حبـذا رجـل
يعتـد! لـذة دنيـاه مـن الديـن

ويبقى دير العذارى بكل ماقيل فيه ويقال وحمل عليه من قصص وغرائب يطوي في محاربيه أحاديث الناعمين بلذته والحالمين بنعمه لما تركته أخباره في نفوس القاصدين والنازلين والنافثين في ابهائه نفثات الهائمين والغارقين في صبوة الجمال الذي امتلكه وهو يحفل بكل ما يترك له صفاء الحب ونقاء المناجاة ولعل ابيات جحظة تعيد لهذا الدير بعض خفقاته وهو يضج بكل مايدعو الى هذا الصفاء والملاطفة [١٢] ..

الا هل الى ديـر العـذارى ونظـرة
الي الخـير من قبـل المـات سـبيلُ
وهـل لي بحانـات المطـيرة وقفـة
أراعي خروج الـزق وهـو جميـل
الى فتيـة ماشـتت العـزل شملهـم
شـعارهم عنـد الصبـاح شـمُول
وقد نطـق النـاقوس بعـد سـكوته
وشَمْعَـلَ قسيـس ولاح فتيـل
يريـد انتصابـا للمقـام بزعمـه
ويرعشـه الادمـان فهـو يميـل

(١٢) ياقوت . معجم البلدان ٢/٦٧٩ .

يغنـي وأسـباب الصـواب تمـده
وليـس لـه فيمـا يقـول عديـل
الاهـل الى شـم الخـزامى ونظـرةٍ
الى قَرْقرى قبـل الممـات سـبيل
وثنّي يغني وهـو يلمـس كأسـه
وادمعـه في وجنتيـه تسيـل
سـيعرض عـن ذكري وتنسى مودتي
ويـحدث بعـدي للخليـل خليـل

واسهم أدب الديارات باغناء الشعر العربي بمعان جديدة وافاض عليه من روح التسامح وجمالية التعبير وبراعة الاقتدار بسبب مجالس الانس التي وجدت فيه مرتعا ، وانطلاق الخوافق وهي تغترف من السحر الحلال ما يفسح لها مجال الابداع فكانت البحور القصيرة خصيصة من خصائص هذا الفن الشعري اما براعة الموسيقى وحسن اللحن وملاحة الغناء وخفة العبارات فكانت وجها آخر فعبدالله بن محمدالامين ينزل في دير حنظلة ويشرب ويضرب بالعود وكان حسن الصوت طيبه فيقول :

الا يـادير حنظلـة المفـدى
لقـد أورثتـني تعبـا وكـدا
الا يـادير جـادتك الغـوادي
سحابـا حُمّلتْ برقـا ورعـدا

ويقيم بهذا الدير عشرة أيام يصطبح في كـل يوم ويلقى على المغنين لحنا صنعه في هذا الشعر لم يسمع املح منه على كثرة صنعته في شعره[١٣] .

(١٣) البكري . معجم ما استعجم /٥٧٩ .

ويقدم لنا أدب الاديرة قائمة باسماء الشعراء الذين ذهب الدهر باخبارهم وعفت الايام على دواوينهم ولم يبق لهم ذكر الا من خلال هذه المقطعات والقصائد التي تؤكد صدق شعرهم وسلامة الفاظهم وحبهم للحياة التي أفاضوا بذكر أخبارها فضاعوا بضياع أخبارهم وانتهوا بنهاية ما استشهد به من اشعارهم •• فحفظ ياقوت عددا لايستهان به من قصائدهم فكانوا مادة لما حاولنا الحديث عنه ، واستشهد بهم البكري والشابشتي وغيرهم ممن وجد في اشعارهم أدلة على ماذهب اليه من أسباب وتطول قائمة هؤلاء الشعراء منهم ابن البصري والكندي وعمر بن عبدالملك والفضل بن العباس وحمدان بن عبدالرحيم وابن عاصم وابو جفنة القرشي واسماعيل بن عمار الاسدي ومحمد ابن عاصم المصري وابو فراس بن ابي الفرج البزاعي وعشرات الشعراء الاخرين الذين غيبتهم الحياة وعاشت اسماؤهم حبيسة في بعض مظان الادب واما الغرباء من الشعراء الذين لم تعرف اسماؤهم فعددهم اكثر وصوتهم أشد وحرقتهم أقسى وأمر وهي ظاهرة تسترعي الانتباه وتثير التساؤل للوقوف على اخبار هؤلاء الشعراء واضافة مايعثر عليه من شعرهمالى شعر الفترة ليلوّن أدبها بنفحاتهم الشعرية ويغني مفرداتها بما اضافوه لها من صور فنية وتراكيب جديدة أوحت بها مجالس الطرب وهيأت لها أجواء الاديرة ••

ويأخذ حديث الوجوه التي تسلب العقول ، والقلوب التي تُقَدُّ بالقدود والعيون التي تشكو ما تلاقيه من العيون النجل والبدور التي تغنى بحسنها عن البدور مساحة كبيرة في أدب الاديرة حتى أصبحت تقاليد الشعر في هذا الضرب الادبي بناء فنيا تتوحد الصور في اطاره وتتوازن المعاني في تراكيبه وتلتقي المفردات في أحاديثه (١٤) .

---

(١٤) ياقوت . معجم البلدانن ٢/٦٦٣ ، ٦٦٦ .

ويخالط الحنين بعض اخبار الديارات لما تبعثه هذه الاخبار من أسباب، وتثيره من نوازع وتستذكره من أيام عزيزة ، ولم يجد الناس غير الشعر صوتا تتسرب في حناياه الخوافي ، وانفاسا تحمل رنين الكؤوس وانغام الاباريق[١٥].

وتثير اخبار الديار شجى الشعراء ، وتبعث فيهم أسباب الحزن وهم ينظرون اليها وقد تحولت ايامها وبان اصحابها ولم يبق منها الا بقايا ديار وهي أدعى للتأثر وابعث على استدرار العواطف واشجى لمن يحزنه الفراق وتؤلمه أسباب الهجر فوقف ابو فراس بن ابي الفرج البزاعي في دير سمعان وقد تحولت مرابعه خرائب وخلت من كل أنيس وطارق فقال [١٦] .

يا دير سمعان قل لي اين سمعانُ
وايـن بانوك خَبّرني متى بانوا
واين سكانك اليوم الالى سلفوا
قد اصبحوا وهم في الترب سكان
اصبحت قفرا خرابا مثل ما خربوا
بالموت ثم انقضى عمر" وعمران
وقفت أسأله جهلا ليُخبرني
هيهات من صامت بالنطق تبيان
اجابني بلسان الحال انهم
كانوا ويكفيك قول" انهم كانوا

ويقترن ذكر الاديرة باحداث تترك في نفوس الشعراء الما وتبعث في

(١٥) ينظر خبر دير بصرى في بلدان ياقوت ٦٤٧/٢ .
(١٦) ياقوت . معجم البلدان ٦٧١/٢ وتنظر ص ٧٠٧ ــ ٧٠٩ .

قلوبهم أسى كما يقترن هذا الذكر أحيانا بالايام العزيـزة والليـالي الحالمة واللحظات السعيدة •

فجرير يرثي ابنه سوادة ويصاحب هذا الرثاء ذكر ديرين هما دير بولس ودير بطرس فيقول :

لكـن سـوادة يجلـو مقلتـي لِحـم
بـاز يُصرصرُ فـوق المرقـب العـالي
الا يـكن لـك بالديريـن بـاكية"
فـرُبّ بـاكيةٍ بالـدار معـوالِ
قـالوا نصيبك مـن أجر فقلـتُ لهـم
كيـف العـزاء وقـد فـارقت أشـبالي

وعندما وقعت الحرب بين عبدالملك بن مروان ومصعب بن الزبير قال عبدالله بن قيس الرقيات يرثي مصعبا ويذكر دير الجاثليق :

لقـد أورث المصـرين حـزنـا وذلـة
قتيـل" بديـر الجـاثليق مقيـمُ
فلا قـاتلت في اللـه بـكر بـن وائـل
ولا صـبرت عنـد اللقـاء تميـمُ

أما دير الجماجم فقد ذكرته الشعراء وقالت فيه من القصائد مايضيق بـه صدر هذا البحث ومثل هذا يقال في دير زكي فقد ذكره الشعراء وذكروا بهجته وتشوقوه (١٧) وذكرت الشعراء دير العذارى فاكثرت (١٨) •

---

(١٧) البكري • معجم ما استعجم ٥٧٢/١ •
(١٨) البكري • معجم ما استعجم ٥٧٣/١ •

وليس غريبا بعد هذا ان نجد الناس الذين اغلقت امامهم فرص الحياة ، فخرجوا على اعرافها مغرورين وابتعدوا عن طريق الصواب نادمين لم يجد هؤلاء مواطن يحتمون بها ويبتعدون عن عيون الرقباء والسلطان غير الاديرة بعد ان يوطنوا النفس على البقاء فيها والعيش في ظلها والرضا بما يقسمه الرب من عطائها • فأصبح دير ابن عامر ملاذا لعياش الضبي الذي برر خروجه هذا باسبابه التي عرضها في أبياته حيث يقول (١٩) •

الم ترني بالدير دير ابن عامر
زللتُ وزلاتُ الرجال كثير
فلولا خليلٌ خانني وامتنه
وجدك لم يقدر علي أمير
فاني قد وطنتُ نفسي لما ترى
وقلبك يا ابن الطيلسان يطير
كفى حزنا في الصدر ان عوائدي
حَجَبْنَ واني في الحديد اسير

ووجد الغرباء في الاديرة مواطن تفريج يكتبون على حيطانها نفثات القلوب ، ويعيدون على اسطواناتها همومهم التي ضاقت بهم فحملوها الى كل مكان وعاشت معهم يستذكرون اخبارها • ويودون لو ان كل الناس اقتسموا معهم هذه الهموم ليشاركوهم أساهم ويخففوا عنهم بلواهم ويتحملوا معهم ماعجزوا عن حمله ففي دير حزقيال يقول شريح الخزاعي : اجتزت بدير حزقيال ، فبينا انا ادور به اذا بكتابة على اسطوانة فقرأتها فاذا هي :

(١٩) البكري : معجم ما استعجم ١/٥٧٤ وياقوت ٢/٦٥٤ ومسالك الابصار ١/٢٧٠ •

رب ليــــل كأنـــه نفــسُ العـــا
شــق طولاً قطعتـــهُ بانتحــــاب
ونعيم كوصــل مــن كنت أهــــوا
ه تبدلتــــه ببـــؤس العتــــاب
نسبوني الى الجنـــون ليُخفــوا
ما بقلبــي من صَبــوةٍ واكتئاب
ليت بي ما ادعــوه مــن فقــد عقلي
فهو خــير من طــول هــذا العذاب

وتحته مكتوب ..

وهويتُ فمُنعت ، وطُردت وشرّدت، وفرق بيني وبين الوطن ، وحجبت عن الالف والسكن ، وحبست في هذا الدير عدوانا ، وصفدت في الحديــد ازمانا .

واني علــى مــانــابني واصــابني
لــذو مــرة بــاق على الحــدثان
فانْ تُعقبِ الايامُ أظفَرْ ببُغيتي
وان ابــقَ مَرْمياّ بيَ الرّجوان
فكم ميّتٍ همّاً بغيظٍ وحســرةٍ
صــبور لمــا يــأتي بــه الملــوانِ

قال : فكتبت ما وجدت وسألت عن صاحبه ، فقالوا : رجل هوى ابنة عم له فحبسه عمه في هذا الــدير خوفا ان يفتضح في ابنته فتجمع اهله فجاؤوا فأخرجوه وزوجوه بها كرها . وتبقى قصة ديرالرصافة خالدة لانها صورة الحياة التي نقشها غريب على واجهة هذا الدير وبث فيها من احزانــه ما يبعث على

الحزن ويرتاع لها الوجدان بعد رحلة طويلة لم يجد فيها من الاستقرار الا الغربة ولم يتلمس من الضياع الا الحرمان بعد ان تفرق الاهل وابتعد الرفاق وضاقت رحاب الدنيا على سعتها ولم يجد صوتا اخلد من الكتابة وذكرى اعز من الوفاء ومكانا اكرم من مواقع يرتادها الناس ليجدوا فيها الراحة بعد العناء والسكينة بعد المشقة والاقتراب الى الروح بعد الانغماس في ملذات الحياة ..

ايـا منزلا بالـدير اصبح خـاليأ
تلاعبُ فيه شمألٌ ودَبورُ
كأنك لم يسكنك بيض اوانس
ولم يتبختر في فنائك حُورُ
وابناء املاك عباشمُ سادةٌ
صغيرهم عند الانام كبير
اذا لبسوا أدراعهم فعنابسٌ
وان لبسوا تيجانهم فبدورُ
على أنهم يوم اللقاء ضراغمٌ
وأنهُم يوم العطاء بحور

الى ان يقول :

تذكرت قومي خاليا فبكيتهم
بشجوٍ ومثلي بالبكاء جديرُ
وعزيت نفسي وهي نفس اذا جرى
لها ذكرُ قومي أنةٌ وزفيرُ
لعل زمانأ جار يوما عليهم
له بالذي تهوى النفوس يدور

فيفــرحُ مَحزون" ويَنعمَ بائس"
ويُطلقَ من ضــيق الوثاق اســير

واذا كان الغرباء قد استأنسوا بالراحة وهم يجدون انفســهم في اماكن العبادة وقد اكتشفت كل موضع آيات الجلال والوقار والخشوع فان احساسهم النفسي قد استقر وهم يستذكرون الدنيا واسبابها والحيــاة ومتاعها والزمن الذي لا يمر من خلاله الا العمر الذاهب فكانت هذه النفثات الحرى والاناشيد المرتلة اصداء لقسوة الحياة وشعروا بالاغتراب الذي يطوي اللحظات بصمته ويبعد الانسان عن كل متاع ويُضيّق عليه فرج الرؤية ، ويختزل زوايا الامل لينقله الى عالم اليأس والضعف ولكن الانسان الذي آمن بالخلود وعرف ان العمل الصالح هو الباقي والسعادة كل السعادة في الراحة التي يترك فيها هذا الانسان لعواطفه ان تعبر عن ايمانها بالخالق وصدقها مع الذات ووفائها للبشر الذين يحملون متاعب الدنيا ولــكن لم يحن الوقت الذي يتمكنون فيــه من الوقوف مثل هذه الوقفة المتأملة .. هؤلاء الناس يستحقون الرحمة والغفران حتى يدركوا سعة الوفاء الذي يحيط بالحياة العظيمة التي باركها الله في كل ذرة واحياها في كل مبادرة رائدة وصبّها في كل صورة جميلة ..

ان حديثي عن ادب الاديرة يمثل المحاولات الحقة في التوجه لدراسة هذا الفن الذي استكملت به جوانب الحضــارة وعمرت به انماط المجتمعات وهي تنطلق في مواسم الاعياد والمناسبات لتستروح في ارباضها وبساتينها وتنعش النفس بمباهج اللذة وتأخذ من متع الحياة ما تستعين به على مجابهة احداثها الصعبة وايامها القاسية . فكانت المجاميع البشرية وجوقات المبتهجين بالفرح ومواكب القاصدين من كل ناحية تأتلف في حلقات انس عامرة وجماعات انشاد موحدة تجمعها خصائص لها طبعها المناسب وتمتلك مشاعرها اسباب الاستئناس

والمطارحة فكان ادبا له خصائصه التي وقفنا عند بعضها من حيث الشكل والاداء الفني ويبقى الجانب النفسي الذي تضفيه طلاقة الناعمين بالمسيرة وانشراح القلوب التي تجد في هذه المجالس متعتها هو الدافع الحقيقي الذي بعث في هذه النفوس نشوتها لتغني بعطائها ويبقى صوتها الدافيء يلامس القلوب الولهى ويسامر العيون التي لا تنام الا بلقاء الاحبة ولا تغفو الا على صور النماذج التي عاشت حية ودافقة •

★ ★ ★

الفهرس

رقم الايداع في المكتبة الوطنية ببغداد ١٦٧٦ لسنة ١٩٨٥

مطبعة المجمع العلمي العراقي ٣٠٠٠ / ١٩٨٥